تراث الغزالي
(٢)

أسرار الحج

لحجة الإسلام الإمام الغزالي

تحقيق وتعليق
موسى محمد علي

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله على الناس حج البيت

من استطاع إليه سبيلا

صدق الله العظيم

مقـــدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبيـــاء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه الى يوم الدين • وبعد : فيقول الله تعالى :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » •

هذه الآية الكريمة ، هى آية وجوب الحج عند الجمهور •

فيجب الحج على المكلف فى العمر مرة واحدة ، بالنص والاجماع ، روى الامام أحمـــد فى مســـنده ، ومســـلم فى صحيحه وغيرهما ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أيها الناس ، ان الله فرض عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت لمـــا استطعتم ، ثم قال : ذرونى ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فدعوه » •

وأخرج الامام أحمـــد ، وأبو داود ، والنســـائى ، وغيرهم عن أبن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا أيها الناس ان الله كتب عليكم الحج ، فقام الأقرع بن حابس ، فقال : يارسول الله ، أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولن تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » •

وقد يجب الحج أكثر من مرة واحدة وذلك لعارض ، كالنذر ، والقضاء •

ولصحة الحج على الاطلاق شرط واحد وهو الاسلام ، فلا يصح حج الكافر كصومه وصلاته ، ولا يشترط فيها التكليف ، بل يجوز

للولى أن يحرم عن المجنون ، وعن الصبى الذى لا يميز ، وحينئذ يصح حجهما ، روى ابن عباس رضى الله عنهما :

أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بامرأة وهى فى محفتها ، فأخذت بعضد صبى كان معها فقالت :

ألهذا حج ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، ولك أجر » •

وعن جابر رضى الله عنه قال :

حججنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعنا النساء ، والصبيان ، فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم •

ولصحة المباشرة شرط زائد على الاسلام ، وهو التمييز ، فلا تصح مباشرة الحج من المجنون والصبى ، الذى لا يميز كسائر العبادات ، ويصح من الصبى المميز أن يحرم ويحج باذن الولى ، ولا يشترط فيها الحرية كسائر العبادات •

ولوقوعه عن حجة الاسلام شرطان زائدان : البلوغ والحرية ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« أيما صبى حج ثم بلغ فعليه حجة الاسلام ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة الاسلام » •

ومعنى ذلك أن الحج عبادة عمر لا تتكرر ، فاعتبر وقوعها فى حالة الكمال ، ولأن التكليف تابع للتمييز ، فشرط هذا الحكم اذن يعـود الى ثلاثة : الاسلام ، والتكليف ، والحرية •

والفقير لو تكلف الحج وقع حجه عن الفرض ، كما لو تحمل الفتى خطر الطريق وحج ، وكما تحمل المريض المشقة وحضر الجمعة •

ولوجوب حجة الاسلام شرط زائد وهو الاستطاعة بنص الآية الكريمة • واستطاعة السبيل التى شرطها الفقهاء ، ونص عليها القرآن الكريم فى الآية السابقة : هى امكان الوصول اليه ، يقول ابن المنذر : « قالت طائفة من العلماء : الآية على العموم ، اذ لا نعلم خبرا ثابتا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا اجماعا لأهـل العلم ، يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضا ، فعلى كل مستطيع الحج — يجد اليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة — الحج على ظاهر الآية •

وأخرج الترمذى فى سننه بسنده عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من ملك زادا وراحـلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، والله يقول فى كتابه :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » •

ومن طرائف الضحاك الطريفة أنه قال :

« اذا كان شابا صحيحا ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله حتى يقضى نسكه » •

فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا الى البيت ؟

فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة ، أكان يتركه ؟

قال : لا ، بل ينطلق اليه ولو حبوا •

قال : فكذلك يجب عليه حج البيت » •

ويقول الامام مالك رضى الله عنه :

« الاستطاعة على اطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ، لا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه » •

ويقول الامام القشيرى :

« الاســتطاعة فنون : فيستطيع بنفســه وماله ، وهو الصحيح السليم • ويستطيع بغيره ، وهو الزمن المعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق ، فان بلاياه لا تحملها الا مطايانا •

وحج البيت فرض على أصحاب الأموال ، ورب البيت فرض على الفقراء فرض حتم ، فقد ينسد الطريق الى البيت ، ولكن لا ينسد الطريق الى رب البيت ، ولا يمنع الفقير عن رب البيت » •

وكما أن الذى يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ، فاحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله بثوبى

صبره وفقره ، وامساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، واطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى •

ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الاسرار باستجابة كل جزء منك •

وأفضل الحج الشج والعج ، الشج صب الدم ، والعج رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ، ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة ، وموقف النفوس عرفات ، وموقف القلوب الأسامى والصفات لعز الذات عند المواصلات ، ثم طواف القلوب حول مشاهدة العز ، والسعى بالأسرار بين صفى كشف الجلال ولطف الجمال •

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، والمنى والمعارضات بكل وجه •

أما فضل الحج ، وما وعد الله سبحانه وتعالى به عباده من الثواب الجزيل فقد :

أخرج الترمذى فى سننه بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تابعوا بين الحج والعمرة ، فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد ، والذهب ، والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب الا الجنة » •

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » •

وروى ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الحاج حين يخرج من بيته لم يخط خطوة الا كتب الله له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، فاذا وقفوا بعرفات ، باهى الله بهم ملائكته ، يقول :

أنظروا الى عبادى ، أتونى شعثا غبرا ، أشهدكم أنى غفرتهم وبهم وان كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج(١) •

واذا رمى الجمار لم يدر أحد ماله حتى يتوفاه الله تعالى يوم القيامة ، واذا حلق شعره فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة ، فاذا قضى آخر طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمـه » •

وبعـد :

فالحج هو القصد الى من تعظمه ، فقاصد بنفسه الى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه الى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن احرامهم عند قضاء منسكهم ، وأداء فرضهم ، وهؤلاء تحللهم عن احرامهم عند شهود ربهم •

فأما القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الاحرام ، وأما القاصدون بقلوبهم فانهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام •

وسبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فاذا عقد بقلبه الاحرام يجب أن يفسخ كل عقد يصده عن هذا الطريق ، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق ، واذا طهر تطهر عن كل دنس من آثار الأغيار بماء الخجل ، ثم بماء الحياء ، ثم بماء الوفاء ، ثم بمـاء الصفـاء •

فاذا تجرد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوس له من الأخلاق الذميمة ، واذا لبى بلسانه وجب ألا يبقى شـعرة من بدنه الا وقد استجابت لله تعـالى •

فاذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسره حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص •

فاذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ، وعرف له تعالى حقه على نفسه ، ويتعرف الى الله تعالى بتبريه عن منته ، وحوله ، والحق سبحانه يتعرف اليه بمنته وطوله •

---

(١) جمعه : « عوالج الرمال » وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض كما فى النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير •

فاذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ، ولا يصح ذكره لربه مع ذكره لنفسه .

فاذا بلغ منى نفى عن قلبه كل طلب ومنى ، وكل شهوة وهوى . واذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى .

واذا ذبح ذبح هواه بالكلية وتقرب به الى الحق سبحانه ، فاذا دخل الحرم عزم على التباعد عن كل محرم على لسان الشريعة واشارة الحقيقة .

واذا وقع طرفه على البيت شهد بقلبه رب البيت .

فاذا طاف بالبيت أخذ سره بالجولان فى الملكوت .

فاذا سعى بين الصفا والمروة صفى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة انسانية .

فاذا حلق قطع كل علاقة بقيت له .

واذا تحلل من احرام نفسه وقصده الى بيت ربه استأنف احراما جديدا بقلبه .

فكما خرج من بيت نفسه الى بيت ربه يخرج من بيت ربه الى ربه تعالى .

فمن أكمل نسكه فانما عمل لنفسه ومن تكاسل فان الله غنى عن العالمين .

وأما بعد :

فهذه كلمة متواضعة عن « أسرار الحج » موضوع هذا الكتاب الدقيق المعنى ، تحريت فيها ما فتح الله تعالى به لتكون نبذة نافعة لفهم هذا الكتاب ، كما أرجو من الله سبحانه وتعالى .

وكتاب أسرار الحج ، للامام حجة الاسلام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، يبين من فوائده ما أجمل ، ويوضح من مسائله ما أشكل ، ويعرب من مهماته ما أغلق ، ويقيد من تقييداته ما أطلق ، شرح يشرح بحسن وضعه صدور ذوى الألباب ، ويفتح للمسترشدين لطرق الحق باب الصواب .

ذكر فيه مؤلفه ما يختص به من الكشف عن الأفعال الظاهرة المشروعة فى العموم والخصوص على ألسنة علماء الرسوم بالظواهر ، وأتبعه من الاعتبارات المختصة به فى أحوال الباطن بلسان التقريب والاختصار والاشارة والايماء .

ويوضح الامام الغزالى منهج كتاب « أسرار الحج » فيقول :

« ان الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه عبادة العمر ، وختام الأمر ، وتمام الاسلام ، وكمال الدين ، فيه أنزل الله عز وجل قوله : **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »** .

وفيه قال صلى الله عليه وسلم :

« من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا ، وان شاء نصرانيا » .

فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ، ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأجدر بها أن تصرف العناية الى شرحها ، وتفصيل أركانها ، وسننها وآدابها ، وفضائلها وأسرارها ، وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها ، وفضائل مكة ، والبيت العتيق ، وجمل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر الى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة ، وأسرارها الخفية ، وأعمالها الباطنة .

ولما لهذا الكتاب من أهمية كان من الضرورى أن أترك — بعد هذه اللمحة — تفصيل ما اشتمل عليه هذا الكتاب من أسرار ومهمات القارىء الكريم — على الرغم مما بذلته من جهد علمى — ليكون بمثابة المفاجأة علمية تسيطر على كيانه ووجدانه .

ذلك أننا حينما عقدنا العزم على تحقيق هذا الكتاب الثمين ، وابرازه فى صورة جلية واضحة لنقدمه لأصحاب الحال ، وللشغوفين بأعمال القلوب ، حينما اعتزمنا ذلك أخلصنا النية ، ووجهنا القلب الى العلى الأعلى ، أن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، وأن يمنحنا النجاح

والتوفيق ، وأن يبسط يده تعالى ليأخذ بأيدينا فى انجاز هذا العمل الجاد الذى لن يتحقق الا لمن ذاق فعرف وشاهد فوصل .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، فقد قمنا بتحقيق النص — تحقيقا دقيقا — وتخريج كل ما ورد فى الكتاب من احاديث تخريجا وافيا كاملا مع ذكر الحكم على درجه كل حديث هل : صحيح ، حسن ، مرسل ، ضعيف موضوع ، وما شاكل ذلك مع اضافه شرح الكلمات الغامضه ، وتوضيح المسائل المبهمة والتعليق المناسب لها .

واما المؤلف المغفور له ، فعلى الرغم من انتشار علمه ، وتداول كتبه ، واشتهار صيته ، وطيب سمعته وثناء الخلق عليه ، وحسن التقه به ، وحب الصالحين له ، وحبه لهم ، فهو على الرغم من هذا كله ، غنى عن التعريف ، خاصة وقد كثر فى زماننا عدد من ترجموا له من عباقرة العلماء ، وأشهر المفكرين منذ وفاته حتى عصرنا الحديث .

ونكتفى هنا بما ذكره ابن العماد فى شذراته الذى يقول عنه فيها :

الامام زين الدين ، حجة الاسلام ، أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد بن أحمد الطوسى الشافعى ، أحد الأعلام ، تلمذ لامام الحرمين ، ثم ولاه نظام الملك تدريس مدرسته ببغداد ، وخرج له اصحاب ، وصنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط ، والاستبحار فى العلم .

وبالجملة : ما رأى الرجل مثل نفسه ، توفى فى رابع عشر جمادى الآخرة ، بالطابران ، قصبة بلاد طوس وله خمس وخمسون سنة .

يقول ابن كثير :

تفقه على امام الحرمين ، وبرع فى علوم كثيرة ، وله مصنفات منتشرة فى فنون متعددة ، فكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم فيه ، وساد فى شعبيته حتى أنه درس بالنظامية ببغداد فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وله أربع وثلاثون سنة ، فحضر عنده رؤس العلماء ، وكان ممن حضر عنده أبو الخطاب ، وابن عقيل ، وهما من رؤس الحنابلة ، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه ، وقال ابن الجوزى :

« وكتبوا كلامه فى مصنفاتهم ، ثم انه خرج عن الدنيا بالكلية ، وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة وكان يرتزق من النسخ ، ورحل الى

الشام فأقام بها — بدمشق وبيت المقدس — مدة ، وصنف فى هذه المدة كتابه « احياء علوم الدين » وهو كتاب عجيب ، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف ، وأعمال القلوب .

ووقع للغزالى أمور تقتضى علو شأنه من ملاقات الأئمة ، ومجاراة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناطحة الكبار ، فأقبل عليه نظام الملك وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته وطار اسمه فى الآفاق ، وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فقدمها فى تجمل كبير ، وتلقاه الناس ، ونفذت كلمته وعظمت حشمته ، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء ، وضرب به المثل ، وشدت اليه الرحال ، الى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضها وأطرحها ، وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج الى الحجاز فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، فحج ورجع الى دمشق ، واستوطنها عشر سنين بمنارة الجامع ، وصنف فيها كتبا ثم صار الى القدس والاسكندرية ثم عاد الى وطنه بطوس ، مقبلا على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ، ونشر العلم وعدم مخالطة الناس . ثم ان الوزير فخر الدين نظام الملك حضر اليه ، وخطبه الى نظامية نيسابور ، وألح كل الالحاح ، فأجاب الى ذلك ، وأقام عليه مدة ثم تركه ، وعاد الى وطنه على ما كان عليه ، وابتنى الى جواره خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، ولزم الانقطاع ، ووظف أوقاته على الوظائف الخير ، بحيث لا يمضى لحظة منها الا فى طاعة من التلاوة والتدريس والنظر فى الأحاديث ، خصوصا البخارى ، وادامة الصيام والتهجد ومجالسة أهل القلوب الى أن انتقل الى رحمة الله تعالى .

وهو قطب الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود ، وروح خلاصة أهل الايمان والطريق الموصلة الى رضا الرحمن ، فيقرب الى الله تعالى به كل صديق ولا يبغضه الا حاقد أو زنديق .

تصانيفه : يقول ابن قاضى شهبة :

« ومن تصانيفه : البسيط ، وهو كالمختصر للنهاية ، والوسيط ملخص منه ، وزاد فيه أمورا من الابانة للفورانى ومنها : أخذ هذا الترتيب الحسن الواقع فى كتبه ، وتعليق القاضى حسين والمهذب واستمداده منه كثير كما نبه عليه فى المطلب .

ومن تصانيفه أيضا : الوجيز ، والخلاصة ، ومجلد دون التنبيه ، وكتاب الفتاوى له ، مشتمل على مائة وتسعين مسئلة ، وهى غير مرتبة ، وله فتاوى أخرى ، غير مشهورة أقل من تلك . وكتاب الاحياء : وهو الأعجوبة ، العظيم الشأن ، « وبداية الهداية » فى التصوف « والمستصفى » فى أصول الفقه « والجام العوام » فى علم الكلام ، والرد على الباطنية ، ومقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة ، وجواهر القرآن ، وشرح الاسماء الحسنى ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وغير ذلك .

وذكر الشيخ علاء الدين على بن الصيرفى ، فى كتابه « زاد السالكين » أن القاضى أبا بكر بن العربى قال :

« رأيت الامام الغزالى فى البرية وبيده عكازه ، وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ببغداد ، يحضر مجلس درسه ، نحو أربعمائة عمامة ، من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه وقلت له : يا امام ، أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا ؟ قال : فنظر الى شزرا وقال :

لما طلع بدر السعادة فى فلك الارادة ، وجنحت شمس الوصول فى مغارب الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت الى تصحيح أول منزل

ونادت بى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد ... لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

والله سبحانه وتعالى نسأل ، واليه نضرع ، أن ينفعنا بعلمه ، وأن يجزيه عما قدم للاسلام والمسلمين من تراث اسلامى أصيل ، خير ما يجزى به الصالحين المخلصين من عباده ، والأولياء المقربين من أهل وده ، ووداده ، انه حسبنا ومولانا ، عليه توكلنا واليه المصير .

موسى محمد على

الخميس : ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ
١٢ مايو سنة ١٩٧٧ م
القاهرة

أسرار الحج

لحجة الإسلام الإمام الغزالي

تحقيق وتعليق

موسى محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله(٢) الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا(٣) ، وجعل البيت العتيق(٤) مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة الى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا ، والصلاة على محمد نبى الرحمة ، وسيد الأمة(٥) ، وعلى آله وصحبه قادة الحق ، وسادة الخلق(٦) ، وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) أى بكل اسم للذات الأقدس لا لغيره ملتبسا للتبرك ابتدىء ، والله علم للذات الجامعة لسائر ، صفات الكمال وما بعده صفتان له ، أى الموصوف بكمال الاحسان بجميع النعم أصولها وفروعها جلائلها ودقائقها ، أو بارادة ذلك فرفعهما صفة فعل وذات وأصلهما واحد لكونهما من الرحمة .

(٢) لما كان المقام هنا مقام تعظيم ، واللائق به التصريح لم يكتف بالتسمية وقال : « الحمد لله » لأن من اقتصر على التسمية لا يسمى حامدا .

(٣) منيعا لمن احتمى به عن نكاية الأعداء الظاهرة والباطنة ، وفيه تلميح بالحديث الذى ورد من طريق أهل البيت : « لا اله الا الله حصنى ، فمن دخل حصنى أمن من عذابى » .

(٤) وهو الكعبة ، سمى عتيقا لشرفه ، أو لكونه قديما ، او لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار .

وقال مجاهد : « لأنه لم يملك قط » . وقال ابن السائب : « لانه أعتق من الغرق زمن الطوفان » .

(٥) بالسيادة المطلقة على الكل من الأزل ، والأمة بالضم كل جماعة يجمعها أمر ، دين ، أو زمن ، أو مكان واحد ، وسواء كان الأمر الجامع تسخيرا ، أو اختيارا ، أو هما من جملة أسمائه الشريفة صلى الله عليه وسلم .

(٦) يعنى رؤسائهم بسبب قربهم منه صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدتهم له .

أما بعد : فان الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه (١) ، عبادة العمر (٢) ، وختام الأمر ، وتمام الاسلام ، وكمال الدين (٣) ، فيه أنزل الله (٤) عز وجل قوله :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى رضيت لكم الاسلام دينا » (٥) .

وفيه قال صلى الله عليه وسلم :

« من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا »(٦).

فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ، ويساوى تاركها اليهود والنصارى (٧) فى الضلال (٨) ، وأجدر بها أن تصرف العناية (٩) الى شرحها ، وتفصيل أركانها وسننها ، وآدابها وفضائلها وأسرارها .

---

(١) التى بنى عليها كما فى حديث ابن عمر فى الصحيحين : « بنى الاسلام على خمس » .

(٢) اذ وجوبه على المكلف مرة واحدة ، بخلاف غيره من باقى الأركان .

(٣) ما انتهى به الى غاية ليس وراءها مزيد من كل وجه .

(٤) والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة يوم الجمعة فى حجة الوداع .

(٥) الآية رقم ٣ من سورة المائدة .

(٦) والمقصود : من مات ولم يحج مع امكانه أو مات عن عدم الامكان بعد وجوده كان عاصيا لله تعالى من حين أمكنه الى حين موته ولم يكن كامل الاسلام ، لأن الله سبحانه أكمل الاسلام بالحج ، واليه الاشارة من باب التغليظ والزجر بقوله : « فليمت ان شاء يهوديا ، وان شاء نصرانيا »

والحديث رواه ابن عدى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه وقال فى اسناده مقال .

ورواه أيضا البيهقى والدارمى عن أبى الدرداء ، وأخرج الترمذى عن على مرفوعا وموقوفا ولفظه :

« من ملك زادا ، وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا، وذلك أن الله تعالى يقول فى كتابه : **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين »** .

(٧) وفى نسخة أخرى : اليهودى والنصرانى .

(٨) أى الغواية والخسران .

(٩) أى الاهتمام ، وفى نسخة أخرى : « وأجدر بنا أن نصرف العناية » .

وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق ، وجمل أركانها ، وشرائط وجوبها •

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر الى الرجوع •

الباب الثالث : فى آدابهـا الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالهـا البـــاطنة (١) •

فلنبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ، ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى ، وشد الرحال الى المساجد (٢) •

---

(١) وفى نسخة أخرى : « الى المشاهد العظام »

(٢) وهى التى تنبغى مراعاتها لأهل القلوب •

فضـــيلة الحج(١)

قال الله عـز وجـل :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق »(٢) ٠

وقال قتادة : لمـــا أمر الله عز وجل ابراهيم صلى الله عليه وسلم ٠

وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى(٣) ٠

أن يؤذن فى الناس بالحج ، نادى :

---

(١) المشهور عند العلماء : أن العبادات ثلاثة أنواع : بدنية محضة ، وهى الصلاة والصوم ، ومالية محضة وهى الزكاة ، ومركبة منهما وهى الحج ، وقدم بعض العلماء الصوم على الزكاة نظرا الى أن كلا منهما عبادة بدنية ، وأخرى أكثرهم عنها اقتداء بالكتاب والسنة ، واتفق الكل على تأخير الحج عن الثلاث والأفضلية فيهن على الترتيب الذى ذكره أكثر العلماء ، فالصلاة أفضل الأعمال بعد الايمان ، ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ٠

ومن فضيلة الحج أن قوله تعالى : **« ولله على الناس حج البيت ٠٠ »** الآية ، فيه أنواع من التأكيد منها قوله : **« ولله على الناس »** يعنى حق واجب لله على رقاب الناس ، لأن على للالزام ٠

ومنها أنه ذكر الناس ، ثم أبدل منه من استطاع ، وفيه ضربا تأكيد : أحدهما : أن الابدال تنبيه للمراد وتكرير له ، والثانى أن الايضاح بعد الابهام ، والتفصيل بعد الاجمال ، ايراد له فى صورتين مختلفتين ٠

ومنها قوله : **« ومن كفر »** مكان من لم يحج تغليظا على تارك الحج ٠

ومنها ذكر الاستغناء وذا دليل السخط والخذلان ٠

ومنها قوله : **« عن العالمين »** ، ولم يقل : **« عنه »** ، لأنه اذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط ٠

(٢) الآية رقم ٢٧ من سورة الحج ، والخطاب فى الآية لابراهيم عليه السـلام ٠

وعن ابن عباس فى قوله : **« رجالا »** أى مشاة ، و **« من كل فج عميق »** أى طريق بعيد ٠

(٣) ما بين القوسين لا يوجد فى الأصل ، وهو فى نسخة أخرى ٠